أدب الأنبياء في القرآن الكريم

(١)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:
«أدّبني ربّي فأحسن تأديبي».

سنخوض هنا جولة في رحاب «الميزان» ذلك التفسير القيّم للمرحوم العلامة الطباطبائي قدس سره. لقد اخترنا من كتابه النفيس مقتطفاً يبيّن فيه خصائص أدب الأنبياء عليهم السلام..

ذلك الأدب الرفيع الذي أدّبهم به ربّهم الرحمن الذي اجتباهم واصطفاهم وفضلهم على العالمين.

إنّ في هذه الدراسة دعوة حقّ ـ لكل المبلّغين والرساليين الصادقين ـ للاقتداء بهدى ﴿أولئك الذين هدى الله﴾ واتباع منهجهم وسلوك سبيلهم لأنهم المهديون الذين أتاهم الله الكتاب والحكمة وجعلهم أئمة يهدون بأمره وأوحى إليهم فعل الخيرات، وكانوا له عابدين.

يبحث العلّامة رحمه‌الله الأدب الذي أدّب الله به أنبياءه ورسله عليهم‌السلام في عدّة فصول:

(١) الأدب ـ على ما يتحصل من معناه ـ هو الهيئة الحسنة التي يجب أن يقع عليه الفعل المشروع إما في الدين أو عند العقلاء في مجتمعهم، كآداب الدعاء وآداب ملاقاة الأصدقاء وإن شئت قلت: ظرافة الفعل.

ولا يكون إلّا في الأمور المشروعة غير الممنوعة. فلا أدب في الظلم والخيانة والكذب، ولا أدب في الأعمال الشنيعة والقبيحة. ولا يتحقق أيضاً إلّا في الأفعال الاختيارية التي لها هيئات مختلفة فوق الواحدة حتى يكون بعضها متلبساً بالأدب دون بعض، كأدب الأكل مثلاً في الإسلام، وهو أن يبدأ فيه باسم الله ويختم بحمد الله ويؤكل دون الشبع إلى غير ذلك، وأدب الجلوس في الصلاة وهو التورك على طمأنينة ووضع الكفين على الوركين فوق الركبتين والنظر إلى حجره ونحو ذلك.

وإذ كان الأدب هو الهيئة الحسنة في الأفعال الاختيارية، والحسن وإن كان بحسب أصل معناه وهو الموافقة لغرض الحياة مما لا يختلف فيه أنظار المجتمعات لكنه بحسب مصاديقه مما يقع فيه أشد الخلاف، وبحسب اختلاف الأقوام والأمم والأديان والمذاهب وحتى المجتمعات

الصغيرة المنزلية وغيرها في تشخيص الحسن والقبح يقع الاختلاف بينهم في آداب الأفعال.

فربما كان عند قوم من الآداب ما لا يعرفه آخرون، وربما كان بعض الآداب المستحسنة عند قوم، شنيعة مذمومة عند آخرين، كتحية أول اللقاء فإنه في الإسلام بالتسليم تحية من عند الله مباركة طيبة، وعند قوم برفع القلانس، وعند بعض برفع اليد حيال الرأس، وعند آخرين بسجدة أو ركوع أو انحناء بطأطأة الرأس. وكما أن في آداب ملاقاة النساء عند الغربيين أموراً يستشنعها الإسلام ويذمّها، إلى غير ذلك.

غير أن هذه الاختلافات جميعاً إنما نشأت في مرحلة تشخيص المصداق، وأما أصل معنى الأدب ـ وهو الهيئة الحسنة التي يجب أن يكون عليها الفعل ـ فهو مما أطبق عليه العقلاء من الناس وأطبقوا أيضاً على تحسينه، فلا يختلف فيه اثنان.

* * *

(٢) لما كان الحسن من مقوّمات معنى الأدب على ما ذكر في الفصل السابق، وكان مختلفاً بحسب المقاصد الخاصة في المجتمعات المختلفة؛ أنتج ضرورة اختلاف الآداب الاجتماعية الإنسانية. فالأدب في كل مجتمع، كالمرآة، يحاكي خصوصيات أخلاق ذلك المجتمع العامة التي رتبها فيهم

▣ الأدب هو الهيئة الحسنة التي يجب أن يقع عليه الفعل المشروع إما في الدين أو عند العقلاء في مجتمعهم، كآداب الدعاء وآداب ملاقاة الأصدقاء وإن شئت قلت: ظرافة الفعل.

مقاصدهم في الحياة، وركزتها في نفوسهم عوامل اجتماعهم وعوامل مختلفة أخر طبيعية أو اتفاقية.

وليست الآداب هي الأخلاق لما أن الأخلاق هي الملكات الراسخة الروحية التي تتلبس بها النفوس، ولكن الآداب هيئات حسنة مختلفة تتلبس بها الأعمال الصادرة عن الإنسان عن صفات مختلفة نفسية، وبين الأمرين بون بعيد.

فالآداب من منشئات الأخلاق، والأخلاق من مقتضيات الاجتماع بخصوصه بحسب غايته الخاصة. فالغاية المطلوبة للإنسان في حياته هي التي تشخص أدبه في أعماله، وترسم لنفسه خطاً لا يتعداه إذا أتى بعمل في مسير حياته والتقرب من غايته.

□ ليست الآداب هي الأخلاق لما أن الأخلاق هي الملكات الراسخة الروحية التي تتلبس بها النفوس، ولكن الآداب هيئات حسنة مختلفة تتلبس بها الأعمال الصادرة عن الإنسان عن صفات مختلفة نفسية، وبين الأمرين بون بعيد.

□ الإسلام لما كان من شأنه التعرض لجميع جهات الحياة الإنسانية بحيث لا يشذ عنه شيء من شؤونها ـ يسير أو خطير، دقيق أو جليل ـ فلذلك وسع الحياة أدباً، ورسم في كل عمل هيئة حسنة تحاكي غايته.

(٣) وإذا كان الأدب يتبع في خصوصيته الغاية المطلوبة في الحياة فالأدب الإلهي الذي أدّب الله سبحانه به أنبياءه ورسله عليهم السلام هو الهيئة الحسنة في الأعمال الدينية التي تحاكي غرض الدين وغايته، وهو العبودية على اختلاف الأديان الحقة بحسب كثرة موادّها وقلتها وبحسب مراتبها في الكمال والرقيّ.

والإسلام لما كان من شأنه التعرض لجميع جهات الحياة الإنسانية بحيث لا يشذ عنه شيء من شؤونها ـ يسير أو خطير، دقيق أو جليل ـ فلذلك وسع الحياة أدباً، ورسم في كل عمل هيئة حسنة تحاكي غايته.

وليس له غاية عامة إلّا توحيد الله سبحانه في مرحلتي الاعتقاد والعمل جميعاً، أي أن يعتقد الإنسان أن له إلهاً هو الذي منه بدأ كل شيء وإليه يعود كل شيء؛ له الأسماء الحسنى والأمثال العليا، ثم يجري في الحياة ويعيش بأعمال تحاكي بنفسها عبوديته وعبودية كل شيء عنده لله الحق عز اسمه، وبذلك يسري التوحيد في باطنه وظاهره، وتظهر العبودية المحضة من أقواله وأفعاله وسائر جهات وجوده ظهوراً لا ستر عليه ولا حجاب يغطيه.

فالأدب الإلهي ـ أو أدب النبوة ـ هي هيئة التوحيد في الفعل.

* * *

(٤) من المعلوم بالقياس وتؤيده التجربة القطعية أن العلوم العملية ـ وهي التي تتعلم ليعمل بها ـ لا تنجح كل النجاح ولا تؤثر أثرها الجميل دون أن تلقى إلى المتعلم في ضمن العمل، لأن الكليات العلمية ما لم تنطبق على جزئياتها ومصاديقها تتثاقل النفس في تصديقها والإيمان بصحتها؛ لاشتغال نفوسنا طول الحياة بالجزئيات الحسية وكلالها بحسب الطبع الثانوي من مشاهدة الكليات العقلية الخارجة عن الحس. فالذي صدق حسن الشجاعة في نفسها بحسب النظر الخالي عن العمل ثم صادف موقفاً من المواقف الهائلة التي تطير فيها القلوب أدى به ذلك إلى النزاع بين عقله الحاكم بحسن الشجاعة ووهمه الجاذب إلى لذة الاحتراز من تعرض الهلكة الجسمانية وزوال الحياة المادية الناعمة. فلا تزال النفس تتذبذب بين هذا وذاك، وتتحير في تأييد الواحد من الطرفين المتخاصمين، والقوة في جانب الوهم لأن الحس معه.

فمن الواجب عند التعليم أن يتلقى المتعلم الحقائق العلمية مشفوعة بالعمل حتى يتدرب بالعمل ويتمرن عليه لتزول بذلك الاعتقادات المخالفة الكائنة في زوايا نفسه ويرسخ التصديق بما تعلمه في النفس، لأن الوقوع أحسن شاهد على الإمكان.

ولذلك نرى أن العمل الذي لم تعهد النفس وقوعه في الخارج يصعب انقيادها له، فإذا وقع لأول مرة بدا كأنه انقلب من امتناع إلى إمكان وعظم أمر وقوعه وأورث في النفس قلقاً واضطراباً، ثم إذا وقع ثانياً وثالثاً هان أمره وانكسرت سورته والتحق بالعاديّات التي لا يعبأ بأمرها، وإن الخير عادة كما أن الشر عادة.

ورعاية هذا الأسلوب في التعليمات الدينية وخاصة في التعليم الديني الإسلامي من أوضح الأمور، فلم يأخذ شارع الدين في تعليم مؤمنيه بالكليات العقلية العامة قط بل بدأ بالعمل وشفعه بالقول والبيان اللفظي، فإذا استكمل أحدهم تعلم معارف الدين وشرائعه استكمله وهو مجهز بالعمل الصالح مزود بزاد التقوى.. كما أن من الواجب أن يكون المعلم المربي عاملاً بعلمه؛ فلا تأثير في العلم إذا لم يقرن بالعمل؛ لأن للفعل دلالة كما أن للقول دلالة. فالفعل المخالف للقول يدل على ثبوت هيئة مخالفة في النفس يكذب القول، فيدلّ على أن القول مكيدة ونوع حيلة يحتال بها قائله لغرور الناس واصطيادهم.

ولذلك نرى الناس لا تلين قلوبهم ولا تنقاد نفوسهم للعظة والنصيحة إذا وجدوا الواعظ به أو الناصح بإبلاغه غير متلبس بالعمل متجافياً عن الصبر والثبات في طريقه، وربما قالوا: «لو كان ما يقوله حقاً لعمل به» إلّا أنهم ربما اشتبه عليهم الأمر في استنتاج منه فإن

النتيجة أن القول ليس بحق عند القائل؛ إذ لو كان حقاً عنده لعمل به، وليس ينتج أن القول ليس بحق مطلقاً كما ربما يستنتجونه.

فمن شرائط التربية الصالحة أن يكون المعلم المربي نفسه متصفاً بما يصفه للمتعلم متلبساً بما يريد أن يلبسه، فمن المحال العادي أن يربي المربي الجبان شجاعاً باسلاً، أو يتخرج عالم حر في آرائه وأنظاره من مدرسة التعصب واللجاج، وهكذا..

قال تعالى: ﴿*أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدّي إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون*﴾[1]، وقال: ﴿*أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم*﴾[2]، وقال حكاية عن قول شعيب لقومه: ﴿*وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت*﴾[3]. إلى غير ذلك من الآيات.

فلذلك كله كان من الواجب أن يكون المعلم المربي ذا إيمان بموادّ تعليمه وتربيته.

على أن الإنسان الخالي عن الإيمان بما يقوله حتى المنافق المتستر بالأعمال الصالحة المتظاهر بالإيمان الصريح الخالص لا يتربى بيده إلا من يمثله في نفسه الخبيثة؛ فإن اللسان وإن أمكن إلقاء المغايرة بينه وبين الجنان بالتكلم بما لا ترضى به النفس ولا يوافقه السر إلا أن الكلام من جهة أخرى فعل، والفعل من آثار النفس ورشحاتها، وكيف يمكن مخالفة الفعل طبيعة فاعله؟.

فالكلام من غير جهة الدلالة اللفظية الوضعية حامل لطبيعة نفس المتكلم من إيمان أو كفر أو غير ذلك، وواضعها وموصلها إلى نفس المتعلم البسيطة الساذجة؛ فلا يميز جهة صلاحه ـ وهو جهة دلالته الوضعية ـ من جهة فساده ـ وهو سائر جهاته ـ إلا من كان على بصيرة من الأمر. قال تعالى في وصف المنافقين لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿*ولتعرفنّهم في لحن القول*﴾[4].

فالتربية المستعقبة للأثر الصالح هو ما كان المعلم المربي فيها ذا إيمان بما يلقيه إلى تلامذته، مشفوعاً بالعمل الصالح الموافق لعلمه، وأما غير المؤمن بما يقوله أو غير العامل على طبق علمه فلا يرجى منه خير.

ولهذه الحقيقة مصاديق كثيرة وأمثلة غير محصاة في سلوكنا معاشر الشرقيين والإسلاميين خاصة في التعليم والتربية في معاهدنا الرسمية وغير الرسمية فلا يكاد تدبير ينفع ولا سعي ينجح.

وإلى هذا الباب يرجع ما نرى أن كلامه (تعالى) يشتمل على حكاية فصول من الأدب الإلهي المتجلي من أعمال الأنبياء والرسل عليهم السلام مما يرجع إلى الله سبحانه من أقسام عباداتهم وأدعيتهم وأسئلتهم أو يرجع إلى الناس في معاشراتهم ومخاطباتهم؛ فإن إيراد الأمثلة في التعليم نوع من التعليم العملي بإشهاد العمل.

▣ الأدب الإلهي الذي أدّب الله سبحانه به أنبياءه ورسله عليهم السلام هو الهيئة الحسنة في الأعمال الدينية التي تحاكي غرض الدين وغايته، وهو العبودية على اختلاف الأديان الحقّة.

قال الله تعالى بعد ذكر قصة إبراهيم في التوحيد مع قومه: ﴿*وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنّ ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذرّيته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وإلياس كلٌّ من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضّلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده*﴾[٥].

يذكر [الله] تعالى أنبياءه الكرام عليهم السلام ذكراً جامعاً ثم يذكر أنه أكرمهم بالهداية الإلهية وهي الهداية إلى التوحيد فحسب؛ والدليل عليه قوله: ﴿*ولو أشركوا لحبط عنهم*﴾، فلم يذكر منافياً لما حباهم به من الهداية إلا الشرك فلم يهدهم إلا إلى التوحيد.

غير أن التوحيد حكمه سار إلى أعمالهم متمكّن فيها، والدليل عليه قوله: ﴿*لحبط عنهم ما كانوا يعملون*﴾.

فلولا أن الشرك جارٍ في الأعمال متسرب فيها لم يستوجب حبطها، فالتوحيد المنافي له كذلك.

ومعنى سراية التوحيد في الأعمال كون صورها تمثل التوحيد وتحاكيه محاكاة المرآة لمرئيها بحيث لو فرض أن التوحيد تصوّر لكان هو تلك الأعمال بعينها، ولو أن تلك الأعمال تجردت اعتقاداً محضاً لكانت هي هو بعينه.

وهذا المعنى كثير المصداق في الصفات الروحية فإنك ترى أعمال المتكبر يمثل ما في نفسه من صفة الكبر والخيلاء، وكذلك

البائس المسكين يحاكي جميع حركاته وسكناته ما في سره من الذلة والاستكانة وهكذا.

ثم أدّب (تعالى) نبيه صلى الله عليه وآله، فأمره أن يقتدي بهداية من سبقه من الأنبياء عليهم السلام لا بهم، والاقتداء إنما يكون في العمل دون الاعتقاد فإنه غير اختياري بحسب نفسه أي أن يختار أعمالهم الصالحة المبنية على التوحيد الصادرة عنهم عن تأديب عملي إلهي.

ونعني بهذا التأديب العملي ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿*وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين*﴾[٦].

فإن إضافة المصدر في قوله ﴿*فعل الخيرات ...*﴾ تدلّ على أن المراد به الفعل الصادر منهم من خيرات فعلوها وصلاة أقاموها وزكاة آتوها دون مجرد الفعل المفروض. فهذا الوحي المتعلق بالأفعال في مرحلة صدورها منهم وحي تسديد وتأديب، وليس هو وحي النبوة والتشريع، ولو كان المراد به وحي النبوة لقيل: «وأوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» كما في قوله تعالى: ﴿*ثم أوحينا إليك أن اتبع*﴾[٧] وقوله: ﴿*وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة*﴾[٨] إلى غير ذلك من الآيات، ومعنى وحي التسديد أن يخص الله عبداً من عباده بروح قدسي يسدده في أعمال الخير والتحرز عن السيئة كما يسددنا الروح الإنساني في التفكر في الخير والشر، والروح الحيواني في اختيار ما نشتهيه من الجذب والدفع بالإرادة، وسيجيء الكلام المبسوط في ذلك إن شاء الله.

وبالجملة فقوله: ﴿*فبهداهم اقتده*﴾ تأديب إلهي إجمالي له صلى الله عليه وآله بأدب التوحيد المنبسط على أعمال الأنبياء عليهم السلام المنزهة من الشرك.

ثم قال (تعالى) بعدما ذكر عدة من أنبيائه عليهم السلام في سورة مريم: ﴿*أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجّداً وبكيّاً * فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً * إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون شيئاً*﴾[٩].

فذكر (تعالى) أدبهم العام في حياتهم أنهم يعيشون على الخضوع عملاً وعلى الخشوع قلباً لله عز اسمه، فإن سجودهم عند ذكر آيات الله (تعالى) مثال الخضوع، وبكاءهم وهو لرقة القلب وتذلل النفس آية الخشوع، وهما معاً كناية عن استيلاء صفة العبودية على نفوسهم بحيث كلما ذكّروا بآية من آيات

الله بان أثره في ظاهرهم كما استولت الصفة على باطنهم، فهم على أدبهم الإلهي وهو سمة العبودية إذا خلوا مع ربهم وإذا خلوا للناس، فهم يعيشون على أدب إلهي مع ربهم ومع الناس جميعاً.

ومن الدليل على أن المراد به الأدب العام قوله (تعالى) في الآية الثانية: ﴿*فخلَف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات*﴾. فإن الصلاة وهي التوجه إلى الله هي حالهم مع ربهم واتباع الشهوات حال غيرهم من الناس، وحيث قوبل أولئك بهؤلاء أفاد الكلام أن أدب الأنبياء العام أن يراجعوا ربهم بسمة العبودية وأن يسيروا بين الناس بسمة العبودية أي تكون بنية حياتهم مبنية على أساس أن لهم رباً يملكهم ويدبّر أمرهم، منه بدؤهم وإليه مرجعهم، فهذا هو الأصل في جميع أحوالهم وأعمالهم.

والذي ذكره (تعالى) من استثناء التائبين منهم، أدبٌ آخر إلهي بدأ فيه بآدم عليه السلام أول الأنبياء حيث قال: ﴿*وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى*﴾[١٠] وسيجيء بعض القول فيه إن شاء الله تعالى.

وقال (تعالى): ﴿*ماكان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلَوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً * الذين يبلِّغون رسالات الله ويخشَونه ولا يخشَون حداً إلا الله وكفى بالله حسيباً*﴾[١١].

▣ من الواجب عند التعليم أن يتلقى المتعلم الحقائق العلمية مشفوعة بالعمل حتى يتدرب بالعمل ويتمرن عليه لتزول بذلك الاعتقادات المخالفة الكائنة في زوايا نفسه ويرسخ التصديق بما تعلمه في النفس، لأن الوقوع أحسن شاهد على الإمكان.

▣ من شرائط التربية الصالحة أن يكون المعلم المربي نفسه متصفاً بما يصفه للمتعلم متلبساً بما يريد أن يلبسه، فمن المحال العادي أن يربي المربي الجبان شجاعاً باسلاً، أو يتخرج عالم حر في آرائه وأنظاره من مدرسة التعصب واللجاج.

□ يذكر الله تعالى أنبياءه الكرام عليهم السلام ذكراً جامعاً ثم يذكر أنه أكرمهم بالهداية الإلهية وهي الهداية إلى التوحيد فحسب والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم﴾، فلم يذكر منافياً لما حباهم به من الهداية إلّا الشرك فلم يهدهم إلّا إلى التوحيد.

أدب عام أدّب الله سبحانه به أنبياءه عليهم السلام وسنّة جارية له فيهم أن لا يتحرجوا في ما قسم لهم من الحياة ولا يتكلفوا في أمر من الأمور؛ إذ كانوا على الفطرة، والفطرة لا تهدي إلا إلى ما جهزها بما يلائمها في نيله، ولا تتكلف الاستواء على ما لم يسهّل الله لها الارتقاء على مستواه. قال تعالى حكاية عن نبيه صلى الله عليه وآله: ﴿*وما أنا من المتكلفين*﴾[١٢].

وقال تعالى: ﴿*لا يكلف الله نفساً إلا وسعها*﴾[١٣].

وقال تعالى ﴿*لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها*﴾[١٤]

وإذا كان التكلف خروجاً فهو من اتباع الشهوة؛ والأنبياء في مأمن منه.

وقال تعالى ـ وهو أيضاً من التأديب بأدب جامع ـ: ﴿*يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون*﴾[١٥].

أدّبهم (تعالى) أن يأكلوا من الطيبات أي أن يتصرفوا في الطيبات من مواد الحياة ولا يتعدوها إلى الخبائث التي تتنفر منها الفطرة السليمة وأن يأتوا من الأعمال بالصالح منها وهو الذي يصلح للإنسان أن يأتي به مما تميل إليه الفطرة بحسب ما جهزها الله من أسباب تحفظ بعملها بقاءه إلى حين، أو أن يأتوا بالعمل الذي يصلح أن يقدم إلى حضرة الربوبية، والمعنيان متقاربان، فهذا أدب يتعلق بالإنسان الفرد.

ثم وصله تعالى بأدب اجتماعي فذكر لهم أن الناس ليسوا إلا أمة واحدة: المرسلون والمرسَل إليهم، وليس لهم إلا رب واحد فليجتمعوا على تقواه، ويقطعوا بذلك دابر الاختلافات والتحزبات، فإذا التقى الأمران أعني الأدب الفردي والاجتماعي، تشكل

مجتمع واحد بشري مصون عن الاختلاف، يعبد رباً واحداً، ويجري الآحاد منه على الأدب الإلهي، فاتقوا خبائث الأفعال وسيئات الأعمال فقد استووا على أريكة السعادة.

وهذا ما جمعته آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿*شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه*﴾[١٦].

وقد فرق الله الأدبين في موضع آخر فقال: ﴿*وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون*﴾[١٧]. فأدبهم بتوحيده وبناء العبادة عليه، وهذا هو أدبهم بالنسبة إلى ربهم، وقال: ﴿*وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يلقى إليه كنز أو يكون له جنة يأكل منها... وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق*﴾[١٨] فذكر أن سيرة الأنبياء جميعاً وهو أدبهم الإلهي، هو الاختلاط بالناس ورفض التحجب والاختصاص والتميز من بين الناس، فكل ذلك مما تدفعه الفطرة، وهذا أدبهم في الناس.

* * *

(٥) من أدب الأنبياء عليهم السلام في توجيههم الوجوه إلى ربهم ودعائهم إياه ما حكاه الله تعالى من قول آدم عليه السلام وزوجته: ﴿*ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين*﴾[١٩]. كلمة قالاها بعدما أكلا من الشجرة التي نهاهما الله أن يقربا منها، وإنما كان نهي إرشاد ليس بالمولوي، ولم يعصياه عصيان تكليف بل كان ذلك منهما مخالفة نصيحة، في رعايتها صلاح حالهما وسعادة حياتهما في الجنة الآمنة من كل شقاء وعناء، وقد قال لهما ربهما في تحذيرهما عن متابعة إبليس: ﴿*فلا يخرجنّكما من الجنة فتشقى * إن لك ألّا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى*﴾[٢٠].

فلما وقعا في المحنة وشملتهما البلية، وأخذت سعادة الحياة توادعهما وداع ارتحال، لم يشتغلا بأنفسهما اشتغال اليائس البائس، ولم يقطع القنوط ما بينهما وبين ربهما من السبب الموصول، بل بادرا إلى الالتجاء بالله الذي إليه أمرهما، وبيده كل خير يأملانه لأنفسهما فأخذا وتعلقا بصفة ربوبيته المشتملة على كل ما يدفع به الشر ويجلب به الخير، فالربوبية هي الصفة الكريمة ـ التي ـ تربط العبد بالله سبحانه.

ثم ذكرا الشرّ الذي يهدّدهما بظهور آياته وهو الخسران ـ كأنهما اشتريا لذة الأكل بطاعة الإرشاد الإلهي فبان لهما أن سعادتهما قد أشرفت بذلك على الزوال ـ في الحياة، وذكرا حاجتهما إلى ما يدفع هذا الشر عنهما فقالا: ﴿*وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين*﴾ أي إن خسران الحياة يهددنا وقد

أطل بنا وما له من دافع إلا مغفرتك للذنب الصادر عنا وغشيانك إيانا بعد ذلك برحمتك وهي السعادة؛ لما أن الإنسان بل كل موجود مصنوع يشعر بفطرته المغروزة أن من شأن الأشياء الواقعة في منزل الوجود ومسير البقاء أن تستتم ما يعرضها من النقص والعيب، وأن السبب الجابر لهذا الكسر هو الله سبحانه وحده فهو من عادة الربوبية.

ولذلك كان يكفي مجرد إظهار الحال، وإبراز ما نزل على العبد من مسكنة الحاجة فلا حاجة إلى السؤال بلفظ بل في بدو الحاجة أبلغ السؤال وأفصح الاقتراح.

ولذلك لم يصرّحا بما يسألانه ولم يقولا: «فاغفر لنا وارحمنا» ولأنهما ـ وهو العمدة ـ أوقفا أنفسهما بما صدر عنهما من المخالفة موقف الذلة والمسكنة التي لا وجه معها ولا كرامة، فنتجت لهما التسليم المحض لما يصدر في ذلك من ساحة العزة ومن الحكم، فكفّا عن كل مسألة واقتراح، غير أنهما ذكرا أنه ربهما فأشارا إلى ما يطمعان فيه منه مع اعترافهما بالظلم.

فكان معنى قولهما: ﴿*ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين*﴾: أسأنا فيما ظلمنا أنفسنا فأشرفنا بذلك على الخسران المهدد لعامة سعادتنا في الحياة فهو ذا الذلة والمسكنة أحاطت بنا، والحاجة إلى إمحاء وسمة الظلم وشمول الرحمة شملتنا، ولم يدع ذلك لنا وجهة ولا كرامة نسألك بها، فها نحن مسلّمون لحكمك أيها الملك العزيز فلك الأمر ولك الحكم غير أنك ربنا ونحن مربوبان لك نأمل منك ما يأمله مربوب من ربه.

* * *

ومن أدبهم ما حكاه الله تعالى من دعوة نوح عليه‌السلام في ابنه: ﴿*وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء... ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين*﴾[٢١].

لا ريب أن الظاهر من قول نوح عليه‌السلام أنه كان يريد الدعاء لابنه بالنجاة، غير أن التدبر في آيات القصة يكشف الغطاء عن حقيقة الأمر بنحو آخر:

فمن جانب أمره الله بركوب السفينة هو وأهله والمؤمنون بقوله: ﴿*احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن*﴾[٢٢] فوعده بإنجاء أهله واستثنى منهم من سبق عليه القول، وقد كانت امرأته كافرة كما ذكرها الله في قوله:

□ أدب الأنبياء العام في حياتهم أنهم يعيشون على الخضوع عملاً وعلى الخشوع قلباً لله عزّ اسمه، فإن سجودهم عند ذكر آيات الله تعالى مثال الخضوع، وبكاءهم وهو لرقة القلب وتذلل النفس آية الخشوع، وهما معاً كناية عن استيلاء صفة العبودية على نفوسهم.

﴿*ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط*﴾[٢٣]. وأما ابنه فلم يظهر منه كفر بدعوة نوح، والذي ذكره الله من أمره مع أبيه وهو في معزل إنما هو معصية بمخالفة أمره عليه‌السلام ولس بالكفر الصريح. فمن الجائز أن يظن في حقه أنه من الناجين لظهور كونه من أبنائه وليس من الكافرين فيشمله الوعد الإلهي بالنجاة.

ومن جانب قد أوحى الله تعالى إلى نوح عليه‌السلام حكمه المحتوم في أمر الناس كما قال: ﴿*وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون * واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون*﴾[٢٤] فهل المراد بالذين ظلموا الكافرون بالدعوة أو يشمل كل ظلم أو هو مبهم مجمل يحتاج إلى تفسير من لدن قائله تعالى؟.

فكأن هذه الأمور رابته عليه‌السلام في أمر ابنه ولم يكن نوح عليه‌السلام بالذي يغفل عن مقام ربه وهو أحد الخمسة أولي العزم سادات الأنبياء، ولم يكن لينسى وحي ربه: ﴿*ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون*﴾ ولا ليرضى بنجاة ابنه ولو كان كافراً ماحضاً في كفره، وهو عليه‌السلام القائل فيما دعا على قومه: ﴿*رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً*﴾[٢٥] ولو رضي في ابنه بذلك لرضي بمثله في امرأته.

ولذلك لم يجترئ عليه‌السلام على مسألة قاطعة بل ألقى مسألته كالعارض المستفسر؛ لعدم إحاطته بالعوامل المجتمعة واقعاً على أمر ابنه، بل بدأ بالنداء باسم الرب لأنه مفتاح دعاء المربوب المحتاج السائل ثم قال: ﴿*إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق*﴾ كأنه يقول وهذا

يقضي بنجاة ابني ﴿*وأنت أحكم الحاكمين*﴾ لا خطأ في أمرك ولا مغمض في حكمك فما أدري إلى مَ أنجر أمره؟.

وهذا هو الأدب الإلهي: أن يقف العبد على ما يعلمه، ولا يبادر إلى مسألة ما لا يدري وجه المصلحة فيها.

فألقى نوح عليه السلام القول على وجد منه كما يدل عليه لفظ النداء في قوله: ﴿*ونادى نوح ربه*﴾ فذكر الوعد الإلهي ولم يزد عليه شيئاً ولا سأل أمراً.

فأدركته العصمة الإلهية وقطعت عليه الكلام، وفسر الله سبحانه له معنى قوله في الوعد: ﴿*وأهلك*﴾ أن المراد به الأهل الصالحون، وليس الابن بصالح، وقد قال تعالى من قبل: ﴿*ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون*﴾، وقد أخذ نوح عليه السلام بظاهر الأهل وأن المستثنى منهم هو امرأته الكافرة فقط، ثم فرع عليه النهي عن السؤال فيما ليس له به علم، وهو سؤال نجاة ابنه على ما كان يلوح إليه كلامه أنه سيسألها.

فانقطع عنه السؤال بهذا التأديب الإلهي، واستأنف عليه السلام بكلام آخر صورته صورة التوبة وحقيقته الشكر لما أنعم الله بهذا الأدب الذي هو من النعمة فقال: ﴿*ربِّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم*﴾ فاستعاذ إلى ربه مما كان من طبع كلامه أن يسوقه إليه وهو سؤال نجاة ابنه ولا علم له بحقيقة حاله.

ومن الدليل على أنه لم يقع منه سؤال بعد هو قوله: ﴿*أعوذ بك أن أسألك ...*﴾ ولم يقل: «أعوذ بك من سؤال ما ليس لي به علم» لتدل إضافة المصدر إلى فاعله وقوع الفعل منه.

﴿*ولا تسألن ...*﴾ ولو كان سأله لكان من حق الكلام أن يقابل بالرد الصريح أو يقال مثلاً: «لا تعد إلى مثله» كما وقع نظيره في موارد من كلامه تعالى كقوله: ﴿*قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني*﴾[٢٦]، وقوله: ﴿*إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ... يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً*﴾[٢٧].

ومن دعاء نوح عليه السلام ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿*رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً*﴾[٢٨]. حكاه الله تعالى عنه في آخر سورة نوح بعد آيات كثيرة أوردها في حكاية شكواه عليه السلام الذي بثه لربه فيما جاهد به من دعوة قومه ليلاً ونهاراً فيما يقرب من ألف سنة من مدة حياته، وما قاساه من شدتهم وكابده من المحنة في جنب الله سبحانه، وبذل من نفسه مبلغ جهدها، وصرف منها في سبيل هدايتهم منتهى طوقها فلم ينفعهم دعاؤه إلا فراراً، ولم يزدهم نصحه إلا استكباراً.

ولم يزل بعدما بثّه فيهم من النصيحة والموعظة الحسنة وقرعه أسماعهم من الحق والحقيقة، ويشكو إلى ربه ما واجهوه به من العناد والإصرار على الخطيئة، وقابلوه به من

المكر والخديعة حتى هاج به الوجد والأسف وأخذته الغيرة الإلهية فدعا عليهم فقال: ﴿*رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً * إنك إن تذرهم يُضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً*﴾[٢٩].

وما ذكره من إضلالهم عبادَ الله إن تركهم الله على الأرض هو الذي ذكره عنهم في ضمن كلامه السابق المحكي عنه: ﴿*وقد أضلوا كثيراً*﴾ وقد أضلوا كثيراً من المؤمنين به فخاف إضلالهم الباقين منهم، وقوله: ﴿*ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً*﴾ إخبار ببطلان استعداد أصلابهم وأرحامهم أن يخرج منها مؤمن؛ ذكره ـ وهو من أخبار الغيب ـ عن تفرس نبوي ووحي إلهي.

وإذا دعا على الكافرين لغيرة إلهية أخذته، وهو النبي الكريم أول من جاء بكتاب وشريعة، وانتهض لإنقاذ الدنيا من غمرة الوثنية ولم يلبه من المجتمع البشري إلا قليل ـ وهو قريب من ثمانين نسمة على ما في الأخبار ـ فكان من أدب هذا الموقف أن لا ينسى المؤمنين بربه الآخذين بدعوته، ويدعو لهم إلى يوم القيامة بالخير.

فقال: ﴿*رب اغفر لي*﴾ فبدأ بنفسه لأن الكلام في معنى طلب المغفرة لمن يسلك سبيله فهو إمامهم وأمامهم ﴿*ولوالدي*﴾ وفيه دليل على إيمانهما ﴿*ولمن دخل بيتي مؤمناً*﴾ وهم المؤمنون به من أهل عصره ﴿*وللمؤمنين والمؤمنات*﴾ وهم جميع المؤمنين أهل التوحيد فإن قاطبتهم أمته، ورهن منته إلى يوم القيامة، وهو أول من أقام الدعوة الدينية في الدنيا بكتاب وشريعة، ورفع أعلام التوحيد بين الناس، ولذلك حياه الله سبحانه بأفضل تحيته إذ قال: ﴿*سلام على نوح في العالمين*﴾[٣٠] فعليه السلام من نبي كريم كلما آمن بالله مؤمن، أو عمل له بعمل صالح، وكلما ذكر لله عز اسمه اسم، وكلما كان في الناس من الخير والسعادة رسم؛ فذلك كله من بركة دعوته، وذنابة نهضته، صلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أجمعين.

* * *

ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام في محاجته قومه: ﴿*قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين * الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين * رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين * واجعل لي لسان صدق في الآخرين * واجعلني من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبي إنه كان من الضالّين * ولا تخزني يوم يُبعثون*﴾[٣١].

دعاء يدعو عليه السلام به لنفسه، ولأبيه عن موعدة وعدها إياه، وقد كان هذا أول أمره ولم ييأس بعد من إيمان أبيه فلما تبين له أنه عدو

لله تبرأ منه.

وقد بدأ فيه بالثناء على ربه ثناء جميلاً على ما هو أدب العبودية وهذا أول ثناء مفصل حكاه الله سبحانه عنه عليه السلام، وما حكى عنه قبل ذلك ليس بهذا النحو كقوله: ﴿*يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض*﴾[٣٢] وقوله لأبيه: ﴿*سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً*﴾[٣٣].

وقد استعمل عليه السلام من الأدب في ثنائه أن أتى بثناء جامع أدرج فيه عناية ربه به من بدء خلقه إلى أن يعود إلى ربه، وأقام فيه نفسه مقام الفقر والحاجة كلها، ولم يذكر لربه إلا الغنى والجود المحض، ومثل نفسه عبداً داخراً لا يقدر على شيء وتقلبه [في] المقدرة الإلهية حالاً إلى حال من خلق ثم إطعام وسقي وشفاء عن مرض ثم إماتة ثم إحياء ثم إشخاص إلى جزاء يوم الجزاء، وليس له إلا الطاعة المحضة والطمع في غفران الخطيئة.

ومن الأدب المراعى في بيانه نسبة المرض إلى نفسه في قوله ﴿*وإذا مرضت فهو يشفين*﴾ لما أن نسبته إليه تعالى في مثل المقام وهو مقام الثناء لا يخلو عن شيء، والمرض وإن كان من جملة الحوادث وهي لا تخلو عن نسبة إليه تعالى، لكن الكلام ليس مسوقاً لبيان حدوثه حتى ينسب إليه تعالى بل لبيان أن الشفاء من المرض من رحمته وعنايته تعالى، ولذلك نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى ربه بدعوى أنه لا يصدر منه إلا الجميل.

ثم أخذ في الدعاء واستعمل فيه من الأدب البارع أن ابتدأ باسم الرب وقصر مسألته على النعم الحقيقة الباقية من غير أن يلتفت إلى زخارف الدنيا الفانية، واختار مما اختاره ما هو أعظم وأفخم فسأل الحكم وهو الشريعة واللحوق بالصالحين وسأل لسان صدق في الآخرين وهو أن يبعث الله بعده زماناً بعد زمان، وحيناً بعد حين من يقوم بدعوته، ويروّج شريعته، وهو في الحقيقة سؤال أن يخصه بشريعة باقية إلى يوم القيامة ثم سأل وراثة الجنة ومغفرة أبيه وعدم الخزي يوم القيامة.

وقد أجابه الله تعالى إلى جميع ما سأله عنه على ما ينبئ به كلامه تعالى إلا دعاءه لأبيه، وحاشا رب العالمين أن يذكر دعاء عبد من عباده المكرمين مما ذهب سدى لم يستجبه، قال تعالى: ﴿*ملة أبيكم إبراهيم*﴾[٣٤] وقال: ﴿*وجعله كلمة باقية في عقبه*﴾[٣٥] وقال: ﴿*لقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين*﴾[٣٦] وحياه بسلام عام إذ قال: ﴿*سلام على إبراهيم*﴾[٣٧].

وسير التاريخ بعده عليه السلام يصدق جميع ما ذكره القرآن الشريف من محامده وأثنى فيه

عليه؛ فإنه عليه‌السلام هو النبي الكريم قام وحده بدين التوحيد وإحياء ملة الفطرة وانتهض لهدم أركان الوثنية، وكسر الأصنام على حين اندرست فيه آيات التوحيد، وعفت الأيام فيها رسوم النبوة ونسيت الدنيا اسم نوح والكرام من أنبياء الله، فأقام دين الفطرة على ساق، وبث دعوة التوحيد بين الناس. ودين التوحيد حتى اليوم وقد مضى من زمنه ما يقرب من اربعة آلاف سنة حي باسمه باق في عقبه، فإن الذي تعرفه الدنيا من دين التوحيد هو دين اليهود ونبيهم موسى، ودين النصارى ونبيهم عيسى، وهما من آل إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم‌السلام، ودين الإسلام الذي بعث به محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما‌السلام.

ومما ذكره الله من دعائه قوله: ﴿*رب هب لي من الصالحين*﴾[٣٨] يسأل الله فيه ولداً صالحاً، وفيه اعتصام بربه، وإصلاح لمسألته التي هي بوجه دنيوية بوصف الصلاح ليعود إلى جهة الله وارتضائه.

ومما ذكره تعالى من دعائه ما دعا به حين قدم إلى أرض مكة وقد أسكن إسماعيل وأمه بها، قال تعالى: ﴿*وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير*﴾[٣٩].

يسأل ربه أن يتخذ أرض مكة ـ وهي يومئذ أرض قفرة وواد غير ذي زرع ـ حرماً لنفسه ليجمع بذلك شمل الدين، ويكون ذلك رابطة أرضية جسمانية بين الناس وبين ربهم يقصدونه لعبادة ربهم، ويتوجهون إليه في مناسكهم، ويراعون حرمته فيما بينهم فيكون ذلك آية باقية خالدة لله في الأرض، يذكر الله كل من ذكره، ويقصده كل من قصده، وتتشخص به الوجهة، وتتحد به الكلمة.

والدليل على أنه عليه‌السلام يريد بالأمن الأمن التشريعي الذي هو معنى اتخاذه حرماً دون الأمن الخارجي من وقوع المقاتلات والحروب وسائر الحوادث المفسدة للأمن المخلة بالرفاهية قوله تعالى: ﴿*أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء*﴾[٤٠] فإن في الآية امتناناً عليهم بأمن الحرم وهو المكان الذي احترمه الله لنفسه فاتصف بالأمن من جهة ما احترمه الناس لا من جهة عامل تكويني يقيه من الفساد والقتل، والآية نزلت وقد شاهدت مكة حروباً مبيدة بين قريش وجرهم فيها، وكذا من القتل والجور والفساد ما لا يحصى، وكذا قوله تعالى: ﴿*أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم*﴾[٤١] أي لا يتخطفون من الحرم لاحترام الناس إياه لمكان الحرمة التي جعلناها.

وبالجملة كان مطلوبه عليه‌السلام هو أن يكون لله في الأرض حرم تسكنه ذريته، وكان لا

يحصل ذلك إلا ببناء بلد يقصده الناس من كل جانب فيكون مجمعاً دينياً يؤمّونه بالسكونة واللواذ والزيارة إلى يوم القيامة؛ فلذلك سأل أن يجعله بلداً آمناً، وقد كان غير ذي زرع فسأل أن يرزقهم من الثمرات حتى يعمر بسكانه ولا يتفرقوا منه.

ثم لما أحس أن دعاءه بهذا التشريف يشمل المؤمن والكافر قيّد مسألته بإيمان المدعوّ لهم بالله واليوم الآخر فقال: ﴿*من آمن منهم بالله واليوم الآخر*﴾ وأما أن ذلك كيف يمكن في بلد لو اتفق أن يسكن فيه المؤمنون والكفّار معاً واختلفوا، أو إذا قطن فيه الكفار فقط؟ وكيف يرزقون من الثمرات والأرض بطحاء غير ذي زرع؟ فلم يتعرض له في مسألته.

وهذا من أدبه عليه‌السلام في مقام الدعاء فإن من فضول القول أن يعلم الداعي ربه كيف يقضي حاجته؟ وما هو الطريق إلى إجابة مسألته؟ وهو رب عليم حكيم قدير إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

لكن الله سبحانه إذ كان يريد أن يقضي حاجته على السنّة الجارية في الأسباب العادية ولا يفرق فيها بين المؤمن والكافر تمم دعاءه عليه‌السلام بما قيد به كلامه من قوله:

﴿*ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير*﴾.

وهذا الدعاء الذي أدى إلى تشريع الحرم الإلهي وبناء الكعبة المقدسة التي هي أول بيت وضع للناس ببكة مباركاً وهدىً للعالمين هو إحدى ثمرات همته العالية المقدسة التي امتن به على من بعده من المسلمين إلى يوم القيامة.

ومما دعا عليه‌السلام دعاؤه في آخر عمره على ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿*وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم * ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون * ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء * الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء * رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب*﴾[٤٢].

وهذا مما دعا عليه‌السلام به في أواخر عمره الشريف وقد بنيت بلدة مكة، والدليل عليه قوله فيه: ﴿*الحمد لله الذي وهب لي الكبر إسماعيل وإسحاق*﴾ وقوله: ﴿*اجعل هذا البلد آمناً*﴾ ولم يقل كما في دعائه السابق: ﴿*اجعل هذا بلداً آمناً*﴾.

ومما استعمل فيه من الأدب تمسكه

بالربوبية في دعائه، وكلما ذكر ما يختص بنفسه قال: «رب» وكلما ذكر ما يشاركه فيه غيره قال: «ربنا».

ومن الأدب المستعمل في دعائه كلما ذكر حاجة من الحوائج يمكن أن يسأل لغرض مشروع أو غير مشروع ذكر غرضه الصحيح من حاجته، وفيه من إثارة الرحمة الإلهية ما لا يخفى.

فلما قال: ﴿*اجنبني وبنيّ...*﴾، ذكر بعده قوله: ﴿*رب إنهن أضللن...*﴾، وحيث قال ﴿*ربنا إني أسكنت...*﴾، قال بعده: ﴿*ربنا ليقيموا الصلاة*﴾. وإذ دعا بقوله: ﴿*فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات*﴾ ذيله بقوله: ﴿*لعلهم يشكرون*﴾

ومن أدبه فيه أنه أردف كل حاجة ذكرها بما يناسب مضمونها من أسماء الله الحسنى كالغفور والرحيم وسميع الدعاء، وكرر اسم الرب كلما ذكر حاجة من حوائجه، فإن الربوبية هي السبب الموصول بين العبد وبين الله تعالى، وهو المفتاح لباب كل دعاء.

ومن أدبه فيه قوله: ﴿*ومن عصاني فإنك غفور رحيم*﴾ حيث لم يدعُ عليهم بشيء يسوء، غير أنه ذكر مع ذكرهم اسمين من أسماء الله تعالى هما الواسطتان في شمول نعمة السعادة على كل إنسان ـ أعني الغفور الرحيم ـ حباً منه لنجاة أمته وانبساط جود ربه.

* * *

ومن ذلك ما حكاه الله عنه وعن ابنه إسماعيل وقد اشتركا فيه، وهو قوله تعالى: ﴿*وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذريتنا أمّةً مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم*﴾[٤٣].

دعاء دعوا به عند بنائهما الكعبة، وفيه من الأدب الجميل ما في سابقه.

* * *

ومن ذلك ما حكاه الله عن إسماعيل عليه‌السلام في قصة الذبح؛ قال تعالى:

﴿*فبشّرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين*﴾[٤٤].

وصدر كلامه وإن كان من أدبه مع أبيه إلا أن الذيل فيما بينه وبين ربه. على أن التأدب مع مثل إبراهيم خليل الله عليه‌السلام تأدب مع الله تعالى.

وبالجملة لما ذكر له أبوه ما رآه في المنام، وكان أمراً إلهياً بدليل قول إسماعيل: ﴿*افعل ما تؤمر*﴾ أمره أن يرى فيه رأيه، وهو من أدبه عليه‌السلام مع ابنه فقال له إسماعيل: ﴿*يا أبت أفعل ما تؤمر...*﴾.

ولم يذكر أنه الرأي الذي رآه هضماً لنفسه وتواضعاً لأبيه كأنه لا رأي له قبال رأيه؛ ولذلك صدر القول بخطابه بالأبوة، ولم يقل: «إن شئت فافعل ذلك» لتكون مسألته القطعية تطييباً لنفس أبيه، ولأنه ذكر في كلامه أنه أمرٌ أمر به إبراهيم، ولا يتصور في حق مثله أن يتروى أو يتردد في فعل ما أمر به دون أن يمتثل أمر ربه.

ثم في قوله: ﴿*ستجدني إن شاء الله من الصابرين*﴾ تطييب آخر لنفس أبيه، وكل ذلك من أدبه مع أبيه عليه السلام.

وقد تأدب مع ربه إذ لم يأت بما وعده إياه في صورة القطع والجزم دون أن استثنى بمشيئة الله؛ فإن في القطع من غير تعليق الأمر بمشيئة الله شائبة دعوى الاستقلال في السببية، ولتخل عنها ساحة النبوة، وقد ذم الله ذلك قوماً إذ قطعوا أمراً ولم يعلقوا كما قال في قصة أصحاب الجنة: ﴿*إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين * ولا يستثنون*﴾[٤٥]. وقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله في كتابه بأن يستثني في قوله تأديباً بكناية عجيبة إذ قال: ﴿*ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً * إلا أن يشاء الله*﴾[٤٦].

* * *

ومن ذلك ما حكاه الله عن يعقوب عليه السلام حين رجع بنوه من مصر وقد تركوا بنيامين ويهودا بها. قال تعالى: ﴿*وتولى عنهم وقال يا*

□ من أدب الأنبياء عليهم السلام مع ربّهم أن يتوجهوا في جميع أحوالهم إلى ربّهم ويوردوا عامّة حركاتهم وسكناتهم في سبيله، فإن الله سبحانه ينصّ على أنه هداهم إليه صراطاً مستقيماً.

□ الأنبياء وهم المهديون بهداية الله لا يتبعون الهوى البتة، فعواطفهم النفسانية وأميالهم الباطنية، كل ذلك واقعه في سبيل الله لا يقصدون به إلا الله جلّت عظمته.

*أسفا على يوسف وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم * قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين * قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون*﴾[٤٧].

يقول لبنيه إن مداومتي على ذكر يوسف شكاية مني سوء حالي إلى الله ولست بآيسٍ من رحمة ربي أن يرجعه إليّ من حيث لا يُحتسب، وذلك أن من أدب الأنبياء مع ربهم أن يتوجهوا في جميع أحوالهم إلى ربهم ويوردوا عامة حركاتهم وسكناتهم في سبيله، فإن الله سبحانه ينصّ على أنه هداهم إليه صراطاً مستقيماً. قال تعالى: ﴿*أولئك الذين هدى الله*﴾[٤٨]، وقال في خصوص يعقوب: ﴿*ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلّاً هدينا*﴾[٤٩]. ثم ذكر أن اتّباع الهوى ضلال عن سبيل الله، فقال تعالى: ﴿*ولا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله*﴾[٥٠].

فالأنبياء وهم المهديون بهداية الله لا يتبعون الهوى البتة، فعواطفهم النفسانية وأميالهم الباطنية من شهوة أو غضب أو حب أو بغض أو سرور أو حزن مما يتعلق بمظاهر الحياة من مال وبنين ونكاح ومأكل وملبس ومسكن وغير ذلك، كل ذلك واقعه في سبيل الله لا يقصدون به إلا الله جلت عظمته.

فإنما هما سبيلان مسلوكان: سبيل يتبع فيه الحق وسبيل يتبع فيه الهوى، وإن شئت قلت: سبيل ذكر الله وسبيل نسيانه.

والأنبياء عليهم السلام إذ كانوا مهديين إلى الله لا يتبعون الهوى، كانوا على ذكر من ربهم لا يقصدون بحركة أو سكون غيره تعالى، ولا يقرعون بحاجة من حوائج حياتهم باب غيره من الأسباب، بمعنى أنهم إذا تعلقوا بسبب لم ينسهم ذلك ربهم وأن الأمر إليه تعالى، لا أنهم ينفون الأسباب نفياً مطلقاً لا يبقى مع ذلك لها وجود في التصور مطلقاً، فإن ذلك مما لا مطمع فيه، ولا أنهم يرون ذوات الأشياء وينفون عنها وصفة السببية فإن في ذلك خروجاً عن صراط الفطرة الإنسانية، بل التعلق به أن لا يرى لغيره استقلالاً، ويضع كل شيء موضعه الذي وضعه الله فيه.

وإذا كان حالهم عليهم السلام ما ذكرنا من تعلقهم بالله حق التعلق تمكن منهم هذا الأدب الإلهي أن يراقبوا مقام ربهم ويراعوا جانب ربوبيته فلا يقصدوا شيئاً إلا الله، ولا يتركوا شيئاً إلا الله، ولا يتعلقوا بسبب إلا وهم متعلقون بربهم قبله ومعه وبعده، فهو غايتهم على كل حال.

فقوله (عليه السلام): ﴿*إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله*﴾ يريد به أن ذكري المستمر ليوسف وأسفي عليه ليس على حد ما يلغو أحدكم إذا أصابته مصيبة ففقد نعمة من نعم الله فيذكرها لمن لا يملك منه نفعاً ولا ضراً بجهل منه، وإنما ذلك شكوى مني إلى الله فيما دخلني من فقْد يوسف، وليس ذلك مسألة مني في أمر لا يكون فإني أعلم من الله ما لا تعلمون.

الهوامش

(١) سورة يونس، الآية ٣٥.
(٢) سورة البقرة، الآية ٤٤.
(٣) سورة هود، الآية ٨٨.
(٤) سورة محمد، الآية ٣٠.
(٥) سورة الأنعام، الآيات ٨٣ـ ٩٠.
(٦) سورة الأنبياء، الآية ٣٧.
(٧) سورة النحل، الآية ١٢٣.
(٨) سورة يونس، الآية ٨٧.
(٩) سورة مريم، الآيات ٥٨ ـ ٦٠.
(١٠) سورة طه، الآيتان ١٢١ ـ ١٢٢.
(١١) سورة الأحزاب، الآيتان ٣٨ ـ ٣٩.
(١٢) سورة ص، الآية ٨٦.
(١٣) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.
(١٤) سورة الطلاق، الآية ٧.
(١٥) سورة المؤمنون، الآيتان ٥١ ـ ٥٢.
(١٦) سورة الشورى، الآية ١٣.
(١٧) سورة الأنبياء، الآية ٢٥.
(١٨) سورة الفرقان، الآيات ٧ ـ ٢٠.
(١٩) سورة الأعراف، الآية ٢٣.
(٢٠) سورة طه، الآية ١١٩.
(٢١) سورة هود، الآيات ٤٢ ـ ٤٧.
(٢٢) سورة هود، الآية ٤٠.
(٢٣) سورة التحريم، الآية ١٠.
(٢٤) سورة هود، الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.
(٢٥) سورة نوح، الآية ٢٦.
(٢٦) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.
(٢٧) سورة النور، الآيات ١٥ ـ ١٧.
(٢٨) سورة نوح، الآية ٢٨.
(٢٩) سورة نوح، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.
(٣٠) سورة الصافات، الآية ٧٩.
(٣١) سورة الشعراء، الآيات ٧٥ ـ ٨٧.
(٣٢) سورة الأنعام، الآيتان ٧٨ ـ ٧٩.
(٣٣) سورة مريم، الآية ٤٧.
(٣٤) سورة الحج، الآية ٧٨.
(٣٥) سورة الزخرف، الآية ٢٨.
(٣٦) سورة البقرة، الآية ١٣٠.
(٣٧) سورة الصافات، الآية ١٠٩.
(٣٨) سورة الصافات، الآية ١٠٠.
(٣٩) سورة البقرة، الآية ١٢٦.
(٤٠) سورة القصص، الآية ٥٧.
(٤١) سورة العنكبرت، الآية ٦٧.
(٤٢) سورة إبراهيم، الآيات ٣٥ ـ ٤١.
(٤٣) سورة البقرة، الآيات ١٢٧ ـ ١٢٩.
(٤٤) سورة الصافات، الآيتان ١٠١ ـ ١٠٢.
(٤٥) سورة القلم، الآيتان ١٧ ـ ١٨.
(٤٦) سورة الكهف، الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.
(٤٧) سورة يوسف، الآيات ٨٤ ـ ٨٦.
(٤٨) سورة الأنعام، الآية ٩٠.
(٤٩) سورة الأنعام، الآية ٨٤.
(٥٠) سورة ص، الآية ٢٦.